آداب الرافدين – العدد (55)

1429هـ/2008م

التطورُ الصوتيُّ وأثرهُ في تطوّرِ الدلالة

د. فَرْهَاد عَزِيز مُحْيي الدِين*

تاريخ التقديم: 2008/7/17 تاريخ القبول: 2008/4/1

المقدمـــــة

الحمد لله ربِّ العالمين، والصلاة والسلام على نبيِّهِ الأمين، وعلى آله وأصحابه أجمعين. أمَّا بعدُ:

فقد حاول هذا البحث دراسة التطور الصوتي، ومن ثَمَّ أثر هذا التطور في المستوى الدلالي، إذ إنَّ للتطور الصوتي أثراً في تطور المعنى (الدلالة)، فكان دورُ هذا البحث رصْدَ هذا النوع من التطور الصوتي الذي يؤدي إلى تطورٍ في دلالة الكلمة. وقد اقتضتْ طبيعةُ البحث أنْ تنقسم على مبحثين، إذ بيَّنَ المبحث الأول ظاهرة التطور الصوتي، وذلك من خلال بيان هذه الظاهرة، والأسباب التي تؤدي إلى حدوثها في اللغة.

أمَّا المبحث الثاني فقد بيَّنَ النتائج والآثار التي تمخّضتْ عن هذا التطور على المستوى الدلالي، إذ حاول البحثُ رَصْدَ جملةٍ من الألفاظ التي حدث فيها تطورٌ صوتيٌّ، وقد أدَّى هذا التطورُ إلى تغيُّرٍ في المعنى؛ لأنَّ التطورَ الصوتيَّ يؤدي غالباً إلى تكوين صورٍ جديدة للفظة، ولكن من دون تغيير في دلالتها، فكان دور هذا المبحث رصد الألفاظ التي اعتورها التطور مِمَّا أدَّى إلى تطورٍ في دلالتها.

---

* قسم اللغة العربية/ كلية التربية/ جامعة كركوك.

المبحث الأول

التَطَوُّرُ الصَّوْتِيّ وأسبابه

أولاً: التطوُّرُ الصوتيّ:

يُعَدُّ التطورُ الصوتي واحداً من أسباب تغيُّرِ المعنى وتطوُّرِهِ (1)، إذ إنَّ الألفاظَ ترتبطُ في الأذهانِ بدلالاتٍ محدّدةٍ، وإنَّ أيَّ تطورٍ في أيِّ صوتٍ من أصواتِ هذه الألفاظ قد يؤدي في النتيجة إلى تغيُّرٍ في دلالاتها كلِّياً أو جزئياً.

والتطورُ في اللغةِ سنةٌ من سننها يطرأ على مستويات اللغةِ وعناصرها (أصواتها وتراكيبها ودلالاتها)، وهذا التطور ((لا يجري تبعاً للأهواء والمصادفات، أو وفقاً لإرادة الأفراد، وإنَّما يخضعُ في سيره لقوانينَ جبرية ثابتة مطّردة النتائج، واضحة المعالم، محققة الآثار...))(2).

لذلك يُشبِّهُ الباحثون اللغةَ في تطورها على مرور الزمن بالكائن الحيِّ ((لأنَّها تحيا على ألسنة المتكلمين بها – وهم من الأحياء – وهي لذلك تتطور وتتغيّر بفعل الزمن كما يتطور الكائن الحيّ ويتغيّر، وهي تخضع لما يخضع له الكائن الحيُّ في نشأته ونموّه وتطوره، وهي ظاهرةٌ اجتماعيةٌ تحيا في أحضان المجتمع، وتستمد كيانها منه، ومن عاداته وتقاليده، وسلوك أفراده، كما أنها تتطور بتطور هذا المجتمع، فترقى برقيِّهِ وتنحطُّ بانحطاطهِ))(3).

وقد لاحظ العلماءُ أنَّ تطور اللغة يتوزع بشكلٍ متفاوتٍ على أنظمةِ اللغةِ جميعِها، إذ يبدأ بالنظام الصوتي وينتهي بالنظام الدلالي مروراً بالنظامين الصرفي والنحوي. وأنظمةُ اللغةِ كلُّها ليستْ على سواء في سرعةِ قبول هذا التطور، إذ ثمة

---

(1) إنَّ استخدام كلمة (التطور) عند اللغويين المحدثين لا يعني تقييم هذا التطور، والحكم عليه بالحسن أو بالقبيح، بل هو يأتي عندهم مرادفاً لكلمة (التغيّر). ينظر: التطور اللغوي مظاهره وعلله وقوانينه، د. رمضان عبد التواب 9.

(2) اللغة والمجتمع: د. علي عبد الواحد وافي 78.

(3) التطور اللغوي 5.

فرقٌ في سرعةِ الاستجابة للتطور بين هذه الأنظمة، فأصوات الكلمات وأبنيتها ودلالاتها أسرعُ تطوراً من التراكيب.

فالنظامان الصوتي والصرفي يسيران جنباً إلى جنب في التطور الذي يَعْتَوِرُهُمَا إلى حدٍّ كبير. فالنظام الصوتي يستقرُّ منذ الطفولة ويستمر طول الحياة، فالإنسان يحتفظ حتى أُخريات حياته بجملةٍ من الحركات التي تعوّدت عليها أعضاؤه الصوتية، إلاَّ إذ حدث له عارضٌ، كأن يتلقى لغةً أجنبيةً، ومثله أيضاً النظامُ الصرفيُّ؛ لأنَّ الصرفَ أيضاً لا يتغيَّرُ في أثناء جيلٍ واحدٍ، بل هو كالنظام الصوتي يتغيَّرُ نتيجة الانتقال من جيلٍ إلى آخرَ(1).

أمَّا الفرقُ بينهما فهو في النتائج التي تتمخضُ عن هذا التطور، والآثار التي تترتبُ عليه، إذ إنَّ ((التطور الصوتيَّ شاملٌ لا يتركُ وراءه بقايا، إذ إنَّه يستبدلُ حالاً جديدةً مكان حالٍ قديمةٍ. أمَّا التطورُ الصرفيُّ، فيندر أن يشمل جميع الحالات التي يؤثر فيها، فهو يدع إلى جانب الصيغ الجديدة التي يستحدثها عدداً كبيراً من الصيغ التي تستمر في الاستعمال، وهكذا تترك كلُّ حلقةٍ من حلقات التطور الصرفي بقايا لها))(2).

أمَّا التطورُ الدلالي فهو لا يعرفُ الاستقرار، ولا يهدأ على حالٍ؛ لأنَّه يخضعُ للظروفِ التي تتغيَّرُ من فردٍ إلى آخرَ، إذ إنَّ ((كلَّ متكلمٍ يكوِّنُ مفرداتهِ من أول حياته إلى آخرها بمداومتهِ على الاستعانة بِمَنْ يحيطون به، فالإنسان يزيد من مفرداته، ولكنه ينقص منها أيضاً، ويغيّر الكلمات في حركةٍ دائمةٍ من الدخول والخروج، ولكنَّ الكلمات الجديدة لا تطرد القديمة دائماً، فالذهن يُرَوِّضُ نفسه على وجود المترادفات والمتماثلات، ويوزعها على وجه العموم على استعمالاتٍ مختلفة؛ ذلك لأنَّ الحياةَ تشجع على تغيُّرِ المفردات؛ لأنَّها تضاعف الأسباب التي في

---

(1) ينظر: اللغة: فندريس 246–247.

(2) اللغة 203–204. وهذه الصيغ القديمة هي التي تكوّن بقايا صرفية داخل النظام الصرفي الجديد تشيعُ مع القاعدة الصرفية باسم الشاذ والنادر، وتبقى مع الصيغ المستحدثة، لذلك نجد في النظام العام للغات التي لها تاريخٌ طويلٌ أنها عانت تطوراً ضخماً خلّفتْ مزيجاً من الحالات المختلفة. ينظر: المصدر نفسه.

الكلمات، فالعلاقات الاجتماعية والصناعات، والعدد المتنوعة تعمل على تغيُّرِ المفردات، وتقضي على الكلمات القديمة، أو تحوِّرُ معناها، وتتطلبُ خلقَ كلماتٍ جديدةٍ))(1). أمَّا النظامُ النحوي فإنَّ تطوره أبطأ من الأنظمة الأخرى.

ثانياً: عواملُ التطور الصوتي:

إذا تتبعنا التغيُّراتِ التي تَعْتَوِرُ النظامَ الصوتي سنجدُ أنَّها تتخذ منحيينِ، أحدهما: تغيُّراتٌ تركيبيةٌ، والآخرُ: تاريخيةٌ. فالتغيُّراتُ التركيبيةُ: هي التي تُصيبُ الأصوات نتيجة احتكاك بعضها مع بعض في الكلام. أمَّا التغيُّراتُ التاريخيةُ: فهي التي تصيب الأصوات نتيجة تطورها عِبْرَ السنين لسببٍ من الأسباب (2).

(آ) التغيُّرات (التطورات) التركيبية:

وهي تغيُّراتُ تصيبُ الأصوات التي لا انسجام فيما بينها، والذي يجد المتكلم ثقلاً في النطق بها، ومشقّةً في تحقيقها، فيلجأ المتكلمُ إلى تغييرِ بعضِ الأصواتِ مع بعضٍ عن طريقِ الصلاتِ التي تربط هذه الأصوات بعضها مع بعض في الكلمة الواحدة؛ وذلك تحقيقاً للانسجام الصوتي، وجعل الصوت أسهل في النطق(3).

وهذه التغيّرات تتم بطرائقَ ثلاث:

(1) المماثلة الصوتية:

إنَّ احتكاك الأصوات في عملية التصويت جعلَ بعضها يتأثر ببعض، إذ إنَّ اتِّصالَ الأصواتِ في الكلمةِ الواحدةِ، واتِّصال الكلماتِ في النطقِ المتواصلِ يُخْضِعُها لهذا التأثر، إلاَّ أنَّ نسبةَ التأثرِ تختلفُ من صوتٍ إلى آخرَ، فبعضُ

---

(1) نفسه 247.

(2) ينظر: الوجيز في فقه اللغة: محمد الأنطاكي 251.

(3) ينظر: التطور اللغوي 22، والوجيز 252.

الأصواتِ سريعةُ التأثرِ أكثر من غيرها بحسب الأصوات التي تجاورها وتوافقها في المخرج والصفة(1).

فالمعروف أنَّ الأصوات اللغوية تختلف فيما بينها في المخارج والصفات، فإذا التقى في الكلام صوتان متقاربان في المخرج أو الصفة حدث بينهما شدٌّ وجذبٌ، كلُّ واحدٍ منهما يحاول شدَّ الآخر وجذبه إلى ناحيته؛ ليجعله مماثلاً له(2).

والأصوات في تأثرها هذا ((تهدف إلى نوع من المماثلة أو المشابهة بينها؛ ليزداد مع مجاورتها قربها في الصفات أو المخارج. ويمكن أن يسمَّى هذا التأثر بالانسجام الصوتي بين أصوات اللغة. وهي ظاهرة شائعة في كلِّ اللغات بصفةٍ عامةٍ، غير أنَّ اللغاتِ تختلف في نسبة التأثر وفي نوعه))(3).

لذلك وبناءً على ما سبق يشترط في تحقيق التماثل الصوتي تقارب الصوتين المتماثلين في المخرج، إذ لا يمكن تحقيق التماثل بين صوتين يبعد أحدهما عن الآخر في المخرج، كأن يحدث التماثل بين صوت شفوي وآخر لهوي؛ وذلك لانعدام التأثر بينهما، بسبب بعد المخرج.

وقد أدرك القدماء هذه الظاهرة، إذ سمّاها سيبويه (ت 180هـ) بالمضارعة تارةً، وأشار إليها في باب ((الحرف الذي يُضارعُ به حَرفٌ من موضعه)) (4). وتارةً أُخرى اصطلح عليها بالتقريب، قائلاً: ((هذا باب الإدغام في الحروف المتقاربة التي هي من مخرجٍ واحد)) (5). إذ تندرج ضمن ظاهرة التماثل ظواهر صوتية متعددة مثل: (الإدغام الأصغر، والإدغام الأكبر) (6)، أو (إدغام المثلين) (7)، والإمالة، والإبدال، والإعلال. لذلك كانت التسميات التي اشتهرت بها هذه الظاهرة

---

(1) ينظر: الأصوات اللغوية: د. إبراهيم أنيس 179.

(2) ينظر: التطور اللغوي 22.

(3) الأصوات اللغوية 179.

(4) الكتاب: سيبويه 4/ 477.

(5) نفسه 4/ 445.

(6) ينظر: الخصائص: ابن جني 2/ 139.

(7) ينظر: المقتضب: المبرِّد 1/ 197.

متعددة تختلف من باحث إلى آخر كلٌّ بحسب دراسته لها، فمنهم من أطلق عليها (التجانس)[1]، ومنهم من أطلق عليها (المناسبة)[2]. وبعضهم سمّاها (التشاكل)[3]، (التشاكل)[3]، أو (التشابه)[4]، أو (التماثل)[5].

وتتوضح المماثلة الصوتية من خلال كشف أنواعها، إذ قسَّمها المحدثون على أنواعٍ متعددةٍ منها التقدّمي والرجعي[6]. ومنها الجزئي والكلي، ومنها المتاخمة المتاخمة والتباعدية، والتبادلية، والتوقعية، وغير ذلك [7]. إلاَّ أنَّ طبيعة البحث لا تَسْمَحُ بعرض تفصيلات هذه الأنواع، لذا سيقتصر البحث على التعريف بأهم هذه الأنواع:

1. التقدمي: ويحدث هذا النوع عندما يتأثر الصوت الثاني بالصوت الأول، مثال ذلك: إنَّ تاء الافتعال تتأثر غالباً بالذال، أو الصاد، أو الضاد إذا جاءت قبلها، فتقلب دالاً أو طاءً، نحو: (اضتجع) تصبح (اضطجع)، و(اصتبر) تصبح (اصطبر)، إلاَّ أنَّه قد أصاب هاتين الكلمتين تطور آخر، إذ صارتا في بعض الأحيان (اضَّجَعَ)، و(اصَّبَرَ)، إذ فنى الصوت الثاني في الأول ونطق بهما صوتاً واحداً، وهذا التأثر تقدميٌّ أيضاً[8].

وصياغة ((افتعل من "دعا، ذكر، زاد" هي في الأصل "ادتعى، اذتكر، ازتاد" فاجتمع في كلٍّ من هذه المُثل صوتان متجاوران: الأول منهما مجهور، والثاني مهموس، فتأثر الثاني بالأول وانقلب إلى صوتٍ مجهور

---

[1] ينظر: الخصائص 1/ 111، وشرح المفصل: ابن يعيش 9/ 54.

[2] ينظر: شرح الشافية: رضي الدين الاسترآبادي 3/ 4.

[3] ينظر: علم اللغة: د. علي عبد الواحد وافي 273-274.

[4] ينظر: التطور النحوي للغة العربية: برجستراسر 29.

[5] ينظر: دراسات في فقه اللغة: د. صبحي الصالح 217.

[6] ينظر: الأصوات اللغوية 181. وسمّاها بعضهم بالمقبل والمدبر، ينظر: التطور اللغوي 24-29.

[7] ينظر: التطور اللغوي 24-26، ودراسة الصوت اللغوي: د. أحمد مختار عمر 325، ومعجم علم الأصوات: محمد علي الخولي 163، والتطور النحوي 30.

[8] ينظر: الأصوات اللغوية 182، والتطور اللغوي 24، والتطور النحوي 30-31.

أيضاً ليجتمع صوتان مجهوران؛ ولأنَّ التاء المهموسة حين يجهر بها تصير دالاً، أصبحت هذه المُثل " ادّعى، اذدكر، ازداد))(1).

2. الرجعي: ويحدث هذا النوع عندما يتأثر الأول بالثاني (2)، وهذا يعني أنَّ صوتاً ما يؤثر في صوتٍ سابق فيكون اللاحق مُؤثِراً، والصوت السابق مُتَأثِراً، ومثال ذلك: (من بعيد) يصبح (مم بعيد)، إذ تغيّر صوت النون إلى الميم؛ ليماثل صوت الباء اللاحق له في المخرج؛ لأنَّ كليهما صوتٌ شفويٌّ.

ويأتي التماثل الرجعي في حالة الاتّصال في نحو مضارع صيغتي: (تفعّل وتفاعل)، إذ تتأثر التاء بعد تسكينها بفاء الفعل للتخفيف، إذا كانت صوتاً من أصوات الصفير، أو الأسنان، ثم قيس على ذلك الفعل الماضي، مثال ذلك:

يَتَذَكَّرُ ـــــ يَتْذَكَّرُ ـــــ يَذَّكَّرُ ←ـــــ اذَّكَّرَ (في الماضي)
يَتَطَهَّرُ ـــــ يَتْطَهَّرُ ـــــ يَطَّهَّرُ ←ـــــ اطَّهَّرَ (في الماضي)(3).

وكذلك قوله تعالى: ((وَمَا يُدْرِيْكَ لعَلَّهُ يَزَّكَى أو يَذَّكَّرُ فَتَنْفَعَهُ الذِكْرَى))(4). وقوله تعالى: ((ومَا يَذَّكَّرُ إلاَّ أُولو الأَلْبابِ))(5).

ومثال ذلك أيضاً تأثير (تاء الافتعال) في (الواو والياء) إذا وقعتا في موضع فاء الفعل، فإنَّها تحوّلهما إلى تاء مثلها، فنقول: (ايتسر واوتصل)، ثم تدغم فيها فنقول: (اتَّسَرَ واتَّصَلَ)(6).

3. الجزئي: ويحدث عندما لا يتطابق الصوت مع صوت آخر، مثال ذلك: (انبرى، وانبعث) التي تنطق النون فيهما تحت تأثير صوت (الباء) الشفوية؛ لذلك يتحوّل صوتُ النون إلى صوتِ الميمِ الشفويّ، وذلك لتحقيق التجانس

---

(1) الأصوات اللغوية 181–182، وينظر: التطور اللغوي 24، والتطور النحوي 30–31.

(2) ينظر: الأصوات اللغوية 181.

(3) ينظر: التطور اللغوي 29.

(4) سورة عبس: الآيتان 3–4.

(5) سورة البقرة: الآية 269.

(6) ينظر: الوجيز 254، ودراسة الصوت اللغوي 325.

في النطق؛ لأنَّ المماثلة ((مظهرٌ من مظاهرِ المناسبةِ الصوتيةِ)) (1). فتصبح الكلمتان (امبرى، وامبعث) بنقل صوت النون – تحت تأثير الباء – من عموده الأصلي إلى عمود الباء عن طريق تحويله إلى ميم(2).

4. الكليُّ: ويحدث هذا النوع عندما لا يتطابق الصوتان (3). ويؤدي هذا النوع من المماثلة إلى إمالة الصوت أو إدغامه.

ويسمّى هذا النوع أيضاً بالمماثلة التامة ففيها يتغيّر صوتٌ ليماثل صوتاً آخر بشكل كامل، ويحدث هذا النوع من المماثلة مع (ال التعريف) المتبوعة بالحروف الشمسية وهي: (ت، د، ط، ض، ث، س، ص، ش، ذ، ز، ظ، ن، ر)، مثال ذلك كلمة (الشمس) مكوَّنة من (ال + شمس)، إلاَّ أنَّها تلفظ (اش + شمس)، إذ تغيَّر (اللام) إلى (الشين)؛ لتماثل (الشين) التي تليها تماثلاً كاملاً، وهو بإزاء التماثل الجزئي(4).

ومما هو جدير بالذكر أنَّ هذه الأصوات أسنانية، أو لثوية، أو لثوية غارية، فهي تقع بين اللثة والأسنان، فإذا علمنا أنَّ (اللام) لثوية، تبيَّن لنا سبب التماثل التام وبين اللام، وهذه الأصوات من دون سواها(5).

(2) المخالفة الصوتية:

وهو مصطلح صوتي أطلقه اللغويون المحدثون على إبدال صوتين متماثلين متجاورين في كلمة واحدة إلى صوت آخر مخالف لهما؛ وذلك هرباً من التضعيف، واقتصاداً في الجهد العضلي.

فالمخالفةُ ظاهرةٌ لغويةٌ صوتيةٌ، تنحو باللغة نحو السهولة والتيسير، وذلك عن طريق التخلص من الأصوات العسيرة في النطق؛ لأنَّ الصوتين المتماثلين ((يحتاجان إلى مجهود عضلي للنطق بهما في كلمة واحدة، ولتيسير هذا المجهود

---

(1) التنغيم اللغوي في القرآن الكريم: سمير إبراهيم العزاوي 91.

(2) ينظر: دراسة الصوت اللغوي 325–326.

(3) ينظر: دراسة الصوت اللغوي 325.

(4) ينظر: معجم علم الأصوات 162–163.

(5) ينظر: الأصوات اللغوية: د. محمد علي خولي 220.

العضلي يقلب أحد الصوتين إلى تلك الأصوات التي لا تستلزم مجهوداً عضلياً، كأصوات اللين وأشباهها)) (1). لذلك يكون الصوت الجديد غالباً من الصوائت الطويلة (الألف، والواو، والياء)، أو أشباهها (اللام، والميم، والنون، والراء) التي تسمّى الأصوات المائعة(2).

وقد وجدتْ هذه الظاهرة الصوتية في أكثر اللغات الجزرية (3)، وهي نادرة في العربية موازنةً ببعض أخواتها الجزريات (4). وتُعَدُّ هذه الظاهرة نتيجةً من نتائج التطور التاريخي للأصوات(5).

تنبّه اللغويون القدماء إلى هذه الظاهرة، وعبَّروا عنها بمصطلحات متعددة، من مثل قولهم: (كراهية التضعيف)، إذ ذكر سيبويه: ((هذا باب ما شذَّ فأُبدل مكان اللام الياء لكراهية التضعيف، وليس بمطَّرد، وذلك قولك: تسرَّيت، وتَظَنَّيت، وتقصَّيت من القصة، وأمليت)) (6)، وذلك بدلاً من (تسَرَّرْتُ، وتَظَنَّنْتُ، وتَقَصَّصْتُ، وأمْلَلْتُ)، فالعرب تختار الحرف الثاني من المضعَّف في عملية إبداله من صوت اللين الطويل، كما قال المُبَرِّد (ت 285هـ): ((وقومٌ من العرب إذا وقع التضعيف أبدلوا الياء من الثاني؛ لئلا يلتقي حرفان من جنسٍ واحد)) (7). ونعته غيرهم بـ ((استثقال الجمع بين الحرفين من جنس واحد)) (8). وغيرها من المصطلحات الأخرى(9).

---

(1) الأصوات اللغوية 212، وينظر: التطور اللغوي 41.

(2) ينظر: الأصوات اللغوية 212–213، واللهجات العربية في التراث: د. أحمد علم الدين الجندي 1/350.

(3) ينظر: الأصوات اللغوية 211.

(4) ينظر: التطور النحوي 35.

(5) ينظر: الأصوات اللغوية 211.

(6) الكتاب: 4/ 424، وينظر: المقتضب 1/ 246.

(7) المقتضب 1/ 246.

(8) غريب الحديث: أبو عبيد الهروي 3/ 344.

(9) ينظر: التطور اللغوي 40.

ويبدو أنَّ اختيارهم لصوت اللين الطويل ووضعه مكان أحد الحرفين المتماثلين يدلُّ على أنَّ العربية عاملتْ صوتَ اللين الطويل على أنَّه واحدٌ من عناصر نظام الأُصول الذي يمكن أن يتبادل الموقع مع صوتٍ صامتٍ، وهو بهذا عكس صوت اللين القصير الذي لا يمكن أن يتبادل المكان مع الصوت الصامت(1).

وقد ترد في الكلمة الواحدة ثلاثة أصوات متماثلة، ويختارون في الغالبِ الصوت الأخير منها في عملية الإبدال، ويتم إدغام الصوتين الأوليين، ومثال ذلك:

تَسَرَّرَ ← تَسَرَّى، تَمَطَّطَ ← تَمَطَّى، تَصَدَّدَ ← تَصَدَّى، تَقَضَّضَ ← تَقَضَّى(2).

وثمة أمثلة كثيرة يتبدّل فيها أحد الصوتين المتماثلين إلى صوت لين طويل، أو إلى إحدى الأصوات الشبيهة بأصوات اللين(3).

(3) القلب المكاني:

هو ((تقديم بعض حروف الكلمة على بعض)) (4)، وهو من سنن العرب في كلامها، ويكون في الكلمة والجملة (5). وقد أشار إليه اللغويون القدماء، إذ قال الخليل (ت175هـ): ((وهذه الليلةُ الحاديةَ عشرةَ، واليومُ الحادي عشر، وهذا مقلوبٌ كجَذَبَ وجَبَذَ)) (6). فالأصل (واحد) على زنةِ (فاعل)، أمَّا (الحادي) على زنةِ (عالف) فهو اللفظُ المقلوبُ، وصورتا القلبِ عنده لهجتانِ، إذ ذكر أنَّ: ((الجبذ لغةٌ في الجذبِ))(7).

---

(1) ينظر: في الأصوات اللغوية دراسة في أصوات المدِّ العربية: د. غالب المطَّلبي 284.

(2) نفسه.

(3) ينظر: الأصوات اللغوية 213-214.

(4) شرح الشافية: رضي الدين الاستراَبادي 1/ 21.

(5) ينظر: الصاحبي: ابن فارس 329، وفقه اللغة وسر العربية: الثعالبي 247، والمزهر: السيوطي 1/ 476.

(6) العين: الخليل بن أحمد 3/ 281.

(7) نفسه 6/ 96.

فالألفاظُ التي يحدثُ فيها القلبُ ((زعمَ قومٌ من النحويين أنَّها لغاتٌ)) (1). على حين أنَّ القلبَ ((يحدثُ في لهجةِ القبيلةِ الواحدةِ، وفي اللهجاتِ المتعددةِ))(2).

ويمكن لنا أن نلمس أمثلة هذه الظاهرة في اللغات الجزرية، فكلمة (رُكْبة) نراها في الأكدية (Birke)، وفي العبرية (Burka)، وفي الحبشية (Berk)(3). ولكنَّ العربيةَ آثرت الصيغةَ المقلوبة (رُكْبة)، وهي الفرع وأعرضتْ عن الأصل (بركة)، والدليل على ذلك قولنا: (بَرُك الجَمَلُ).

وقد اختلف النحاة والصرفيون القدماء فيما يُعَدُّ من المقلوب، إذ ذهب البصريون إلى أنَّ (جَذَبَ، وجَبَذَ) ليسا من المقلوب، وإنما من اللغات، على حين ذهب الكوفيون إلى أنهما من المقلوب، فالمسألة خلافية وسعتها كتب اللغة (4). وكان أبو جعفر النحاس (ت 338هـ) قد بيَّن جوانب من هذا الخلاف بين المدرستين، إذ قال: ((القلبُ صحيحٌ عند البصريين مثل شاكي السلاح وشائك، وجرف هارٍ وهائر، أمَّا ما يسمِّيه الكوفيون القلب، نحو جبذ وجذب، فليس هذا بقلب عند البصريين، وإنَّما هما لغتان، وليس بمنزلة شاكٍ وشائك، ألا ترى أنَّه قد أُخِّرتِ الياء في شاكي السلاح)) (5). ويبدو أنَّ عدم تفريق اللغويين بين القلب في مثل (جبذ، وجذب)، و(هارٍ، وهائر) هو الأساس الذي بنى عليه ابن درستويه (ت347هـ) كتابه في إبطال القلب(6).

ويرى ابن جني (ت 392هـ) أنَّ الاعتماد على تصريف اللفظتين هو الكفيل بتحديد أصالتها، أو حدوث القلب بينهما، فإذا كان تَصَرُّفُ اللفظين واحداً

---

(1) المزهر 1/ 476.

(2) الدراسات اللهجية والصوتية عند ابن جني: د. حسام النعيمي 192.

(3) ينظر: التطور النحوي 22، والدراسات اللغوية عند العرب حتى نهاية القرن الثالث الهجري: د. محمد حسين آل ياسين 48.

(4) ينظر: الخصائص 2/ 69 وما بعدها، والمزهر 1/ 476 وما بعدها، وظاهرة القلب المكاني في العربية: د. عبد الفتاح الحموز 14 وما بعدها.

(5) المزهر 1/ 481.

(6) ينظر: المزهر 1/ 481. وظاهرة القلب المكاني 31.

حكمنا أنَّهما أصلان ليس أحدهما مقلوباً عن الآخر، و((مِمَّا تركيباه أصلانِ لا قلب فيهما قولهم: جذب وجبذ ليس أحدهما مقلوباً عن صاحبه. وذلك أنَّهما جميعاً يتصرفان تصرفاً واحداً، نحو جذبَ يجذبُ جذباً فهو جاذب، والمفعول مجذوب، وجبذَ يجبذُ جَبْذاً فهو جابذ، والمفعول مجبوذ))(1). أمَّا إذا كان تصرّف أحد اللفظين أقل من صاحبه حكمنا بأنَّه مقلوبٌ عن الأكثر تصرفاً، قال ابن جني: ((فإن قصَّر أحدهما عن تصرف صاحبه ولم يساوه فيه كان أوسعهما تصرفاً أصلاً لصاحبه))(2). ويمكن أن نَعُدَّ كثرةَ الاستعمال دليلاً يشير إلى الأصل، قال ابن السيِّد البطليوسي (ت 521هـ): ((من مقاييس هذا الباب أن يوجد لأحد اللفظين مادة مستعملة ولا توجد للآخر، فتحكم للذي له المادة المستعملة بأنَّه الأصل، كقولهم: ما أطيبه، وما أيطبه، لأنّا نجدُ لأطيبَ مادةً مستعملةً مصرَّفةً، وهي طاب يطيب طيباً فهو طيِّب، ولا نجد لأيطب مادةً مصرَّفة، فنقضي على أطيب أنه الأصل، وأيطب مقلوبٌ منه)) (3). لذلك فالمقياس الذي يمكننا من خلاله معرفة أصالة أحد اللفظين وقلب الآخر عنه هو ((أن يكون أحد النظمين أكثر استعمالاً من الآخر، أو أكثر تصريفاً أو يوجد مجرَّداً، أو يكون فيه ما يشهد أنه الأصل، والآخر ليس كذلك))(4).

ولم يذكر اللغويون في ظاهرة القلب المكاني شروطاً مثل الذي اشترطوه في ظواهر صوتية أخرى، من مثل وجودِ علاقةٍ صوتيةٍ بين المخارج والصفات، فالقلب المكاني ((ظاهرةٌ لغويةٌ تحدثُ في الغالب اعتباطاً دون قاعدةٍ محدَّدةٍ يسير عليها سوى الرغبة في تخفيف اللفظ، فالناطقُ بفطرته يميل إلى السهولة في الكلام فيقدِّمُ بعض أصوات الكلمة ويؤخِّرُ أخرى))(5).

---

(1) الخصائص 2/ 71-72.

(2) نفسه 2/ 72.

(3) الاقتضاب 2/ 258.

(4) المبدع في التصريف: أبو حيَّان الأندلسي 240.

(5) الدراسات اللغوية عند العرب 406.

وأمثلةُ هذه الظاهرة كثيرةٌ في العربية الفصحى، إذ ذكر السيوطي (ت911هـ) نحو مئة كلمةٍ من المقلوب، مثل: (جذب، وجبذ)، وسحابٌ (مكفهرٌ ومكرهف)، و(اضمحل وامضحل)، و(لزج ولجز)... الخ(1).

ومن أمثلة القلب في بعض اللهجات العامية المعاصرة قول المصرين: (("مَعْلأة" في "مِلْعَقَة"، مع تطورات أخرى فيها، و "اتلوى" في "التوى"، و "أنارب" في "أرانب"، و "جنزبيل" في "زنجبيل"، و "فَحَرَ" في "حَفَرَ"، و "جواز" في "زواج"...))(2). ويتضح ملامح هذا القلب في بعض اللهجات العراقية، إذ يقولون: "دَحِّقْ" والأصل "حَدِّقْ"، و "مَيْؤوس" والأصل "مأيوس"، و "اجا" والأصل "جاءَ"، و "معلقة" والأصل "مِلْعَقَة". ولعلَّ ما نسمعه من ألفاظٍ مقلوبةٍ في لغة الأطفال يُعَدُّ أمثلةً واضحةً لهذه الظاهرة، إذ يبدو أنَّ مَيْلَ المتكلمين إلى التخفيف اللفظي، والتوهُّم السمعي نتيجة ضعف الإصغاء، وتدافع الحروف على اللسان، والخطأ في إخراجها، كُلُّها أسبابٌ أدَّتْ إلى حدوث القلب المكاني في اللغة(3).

(ب) التغيُّراتُ (التطوراتُ) التاريخيةُ:

وهي تختلف عن التطورات التركيبية في أمرين: الأول: إنَّ التطوراتِ التركيبية سريعةٌ، إذ إنَّ (تاء الافتعال) تتحوَّلُ إلى (طاءٍ) بمجرَّد أن يكون فاء الفعل أحد أصوات الإطباق. أمَّا التطوّرات التاريخية فتحدث ببطء شديد، فهي لشدة بطئها لا يشعر بها أبناء الجيل الواحد(4).

أمَّا الأمرُ الثاني: فهو أنَّ حدوث التطورات التركيبية مشروط بالتركيب، فما أن يخرج الصوتُ منه حتى يسترد شكله القديم، فتاءُ الافتعال تعود تاءً بمجرّد أن ينتزع ما قبلها من أصوات الإطباق، كما أنَّ التاءات الأُخرى في اللسان العربي لا يصيبها أيَّ تغييرٍ. أمَّا التطوُّرات التاريخية فمطلقةٌ، أي أنَّها إذا أصابت صوتاً

---

(1) ينظر: المزهر 1/ 476–481.

(2) التطور اللغوي 59.

(3) ينظر: اللهجات العربية في التراث 2/ 654–655.

(4) ينظر: الوجيز 258.

فإنَّها تصيبه في تراكيب اللغةِ كلِّها، فالأصوات الأسنانية (ث، ذ، ظ) اللواتي أصابهنَّ التطور في اللهجات الحديثة لم يتبدَّلنَ في تركيبٍ واحدٍ، بل اختفينَ كلِّياً في تراكيب اللغةِ جميعها، وحلَّتْ محلها أصواتٌ أُخر هي (ت، د، ز)(1).

وقد حاول اللغويون المحدثون تفسير حدوث هذا النوع من التطور في اللغة بتفسيراتٍ مختلفة، وتمخّضتْ من هذه التفسيرات جملةٌ من النظريات، إذ أرجع كلَّ نظريةٍ تطور الأصوات إلى جملةٍ من العوامل قد تكون عضوية، أو بيئية، أو نفسية، أو غير ذلك. وسيقتصر البحثُ على الإشارة إلى أهم هذه النظريات، وهي (نظرية السهولة والتيسير)؛ لأنَّ بعض هذه النظريات قد غَلَتْ في تفسير جوانب التطور الصوتي في اللغة الإنسانية، فضلاً عن أنَّ طبيعة هذا البحث لا تسمح إلاَّ ببيان الجوانب الرئيسة من هذا الموضوع:

(نظرية السهولة والتيسير):

انطلقتْ هذه النظرية من مبدأ السهولة والتيسير الذي تتهجه اللغة في تطورها، إذ ((تنادي هذه النظرية بأنَّ الإنسان في نطقه لأصوات لغته يميلُ إلى الاقتصاد في المجهود العضلي، وتلمس أسهل السبل مع الوصول إلى ما يهدف إليه، من إبراز المعاني وإيصالها إلى المتحدِّثين معه، فهو لهذا يميل إلى استبدال السهل من أصوات لغته بالصّعب الشاق الذي يحتاج إلى مجهودٍ عضلي أكبر. ومثل الإنسان في هذا مثله في معظم الظواهر الاجتماعية، يحاول عادةً الوصول إلى غرضه بأقصر الطرق كلما أمكن ذلك))(2).

والجدير بالذكر أنَّ تطور الأصوات اللغوية كلها لا يمكن تفسيره على وفق قانون السهولة والتيسير، أي أنَّها لا تنطبق على حالات التطور الصوتي كلِّها، بل ((يمكن تطبيقها على كثير من التطوّرات الصوتية في اللغة، فإذا وجد الباحث أنَّ التطور كان عكسياً، أي من السهل إلى الصّعب – كما وُجِدَ فعلاً في عدة حالات – فعليه أن يبحث عن أسبابٍ أُخرى خاصةٍ تبررُ هذا التطور، وهو لا

---

(1) ينظر: نفسه 258–259.

(2) الأصوات اللغوية 235–236، وينظر: لحن العامة والتطور اللغوي: رمضان عبد التواب 44.

شكَّ سيجدها في ظروفٍ خاصة باللغة التي قد يحدث فيها هذا النوع من التطور. فليس ينقض هذه النظرية أن نجد أحياناً أصواتاً سهلةً تطوّرت إلى أصعب منها في بعض الحالات))(1).

ومِمَّا يدخل ضمن هذه النظرية، ظاهرة (الهمز) في اللغة العربية، والتخلص منها من لدن بعض القبائل العربية، ولاسيما قبائل الحجاز، والقبائل الحضرية؛ لأنَّ الهمزةَ صوتٌ شديدٌ، يخرج من أقصى الحلق(2). ويُعَدُّ نطقُها مشكلةً من مشكلات علم الصوت، إذ اختلف العلماء في تحديد صفتها، فمنهم من عدَّها مجهورةً، ومنهم من عدَّها مهموسةً، ومنهم من عدَّها صوتاً لا هو بالمهموس ولا بالمجهور(3). فصوت الهمزة ((ينتج من انطباق الوترين الصوتين "الغشائيين" والغضروفين الهرميين – في الحنجرة – انطباقاً كاملاً وشديداً بحيث لا يسمح للهواء بالمرور مطلقاً فيحتبس داخل الحنجرة ثم يسمح بالخروج على صورة انفجار))(4). لذا فتسهيل الهمز ملائمٌ لهذه القبائل الحضرية التي كانت متأنية في نطقها متئدة في آدابها (5). فلم ((تكن بها حاجة إلى التماس المزيد في مظاهر الأناة فأهملتْ همز كلماتها... واستعاضتْ عن ذلك بوسائل عبَّر عنها النحاة بعباراتٍ مختلفة كالتسهيل والتخفيف والتليين والإبدال والإسقاط))(6). وتسهيل الهمز ظاهرةٌ بارزة من ظواهر التطور الصوتي، وهي شائعة في اللغات الجزرية كلِّها (7). ومن أمثلة التخلص من الهمز قراءة أحد القرَّاء للآية الكريمة ((وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُؤاً

---

(1) نفسه 236، وينظر: التطور اللغوي 47، والوجيز 263.

(2) ينظر: الكتاب 4/ 433، وسر صناعة الإعراب: ابن جنِّي 1/ 46.

(3) ينظر: علم اللغة: د. محمود السعران 171، وعلم اللغة العام (الأصوات): د. كمال بشر 111.

(4) القراءات القرآنية في ضوء علم اللغة الحديث: د. عبد الصبور شاهين 20.

(5) ينظر: في اللهجات العربية: د. إبراهيم أنيس 76–77.

(6) القراءات القرآنية 30–31.

(7) ينظر: من أسرار اللغة: د. إبراهيم أنيس 61.

أَحَد))(1) كُفُواً بإبدال الهمزة واواً(2). ومن ذلك أيضاً ما روي عن النبي (ﷺ) أنَّه كَرِهَ همز كلمة (نَبِيّ) فلم يرضَ بذلك حين قال له رجل: (يا نبيء الله)، بل أمر أن يقولها من غير همز (3). ومنه أيضاً قولهم في (رأس): (راس)، وفي (ذئب): (ذيب)، وغير ذلك(4).

ومن مظاهر تطور الأصوات على وفق نظرية السهولة والتيسير، اندثار الأصوات الأسنانية في عدد من اللهجات الحديثة، ((والأصوات الأسنانية في العربية هي الذال والثاء والظاء، وهي التي تتطلب إخراج طرف اللسان، ووضعه بين الأسنان عند النطق بها، ولاشكَّ أنَّ ذلك جهدٌ عضليٌّ، تخلصت منه لغة الكلام بنقل المخرج إلى ما وراء الأسنان))(5)، إذ حلَّ (الدالُ) محل (الذال)، فقالوا في (ذهب): (دهب)، أو قد يَحِلُّ محله (الزاي) مثل (زِكْر) بدلاً من (ذِكْر)، و(زُلْ) بدلاً من (ذُلْ). أمَّا (الثاء) فحلَّ محلها (التاء) أو (السين)، فقالوا في (ثوب): (توب)، وفي (ثابت): (سابت). وأمَّا (الظاء) فقد حلَّ محلها (الزاي)، فقالوا في (ظلّ): (زلّ)(6).

إنَّ هذين المظهرين قد أوضحا جوانب مهمة من هذه النظرية التي تُعَدُّ ذات أثر بيِّن في التطور الصوتي. وثمة ملامحُ أُخرى لهذه النظرية في اللغة العربية، إلاَّ أنَّ البحث يكتفي بهذين المظهرين تجنباً للإطالة(7).

---

(8) سورة الإخلاص: الآية 4.

(9) ينظر: إتحاف فضلاء البشر في قراءات الأربعة عشر: الدمياطي 445.

(1) ينظر: الخصائص 1/ 382.

(2) ينظر: الأصوات اللغوية 91–104، والتطور اللغوي 47–49.

(3) التطور اللغوي 52.

(4) ينظر: نفسه 53.

(5) للاطّلاع على هذه المظاهر، ينظر: لحن العامة والتطور اللغوي 44–47،والتطور اللغوي 47–61.

المبحث الثاني

أثَرُ التَطَوُّرِ الصَوْتيّ في تَطَوُّرُ الدَلالةِ

كثيراً ما تتطور أصوات الكلمات وتتغيّر، إلاَّ أنَّ هذا التطور أو التغيّر لا يؤدي إلى تغيّرٍ في المعنى، وهذا النوع من التغيّر كثير في العربية، وفي اللغات كلِّها، إذ يندرج ضمن هذا النوع كلَّ ظواهر الإبدال في العربية.

إلاَّ أنَّ ما يَخُصُّ موضوع البحث من هذا التطور ذلك الذي يترتب عليه تطورٌ أو تغيُّرٌ في الدلالة، إذ قد تتطورُ أصواتُ الكلمةِ لِتتشابه مع أصوات كلمةٍ أُخرى مشابهةٍ لها في صورتها الجديدة، مِمَّا يؤدي ذلك إلى تغيُّرٍ في دلالتها. ويؤدي هذا التطور في الوقت نفسه إلى نشوء ظواهر دلالية، مثل (المشترك اللفظي) و(الأضداد)، إذ ينتج عن هذا التطور صورتان للفظةٍ واحدة، إلاَّ أنَّ دلالتهما مغايرة، إلاَّ أنَّ البحث لا يُعنى برصد هاتين الظاهرتين الدلاليتين بقدر ما يُعنى برصد التطور الذي أدَّى إلى تطورٍ في الدلالة.

والدليل الذي نعرف به تطور المعنى لهذه الألفاظ هو وجودُ ألفاظٍ أخرى مشابهة لهذا اللفظ بالصورةِ نفسِها، ولكنَّ بمعنىً مختلف، فعند موازنةِ هذين اللفظين بعضهما ببعض نجد أنَّ أحدهما متطورٌ من أصل آخر، إذ لا يجوز أن تكون اللفظتان قد وضعتا في الأصل بالصورةِ نفسها لمعنيين مختلفين؛ لأنَّ ذلك يتناقض وقانون اللغةِ في منع اللبس في الكلام. ولولا وجود هذه الألفاظ المشابهة في الصورة للفظةِ المتطورة لَما استطعنا معرفة هذا التطور الذي آلتْ إليه اللفظةُ، وهذا يؤدي بنا إلى القول إنَّ في اللغة ألفاظاً كثيرة هي متطورةٌ من أصولٍ أُخرى، ولكنَّ بُعْدَ المساحةِ بيننا وبين التطور الذي أصابها قد أخفى أيةَ علامةٍ بينها وبين دلالتها الجديدة. ومن أجل بيان ذلك عرض البحثُ جملةً من الألفاظ التي اعتورها تطورٌ في بعض أصواتها، وأدَّى هذا التطور إلى تطورٍ في المعنى:

1. (سَغَبَ وتَغَبَ):

مثال ذلك ما حدث للفظة (سَغَبَ)، بمعنى: الجوع والقحط، ومنه قوله تعالى: ((في يومٍ ذي مَسْغَبَةٍ)) (1)، أي ذي مجاعةٍ (2). إذ تطور صوت (السين) إلى صوتٍ قريبٍ له في المخرجِ والصفةِ وهو (التاء)؛ وأدَّى ذلك إلى تَكَوُّنِ صورةٍ جديدة لهذه الكلمة تشابه كلمةً أخرى بالصورةِ نفسها، وهي كلمة (تَغَبَ)، فأصبحت لهذه الكلمة دلالتان: دلالتها القديمة التي تعني: الفساد والهلاك، والدلالة الجديدة التي نَتَجَتْ عن هذا التطور، وهي: القَحَطُ والجُوعُ (3)، إذ ترتب عن هذا التطور الصوتي تطورٌ في دلالة الكلمة، فأصبحت للكلمةِ الواحدة أكثر من دلالة واحدة(4).

واحدة(4).

والذي سوَّغ التطور بين هذين الصوتين تقاربُ مخرجيهما، فضلاً عن الاشتراك في صفة الهمس. فالسين والتاء صوتان مهموسان ((فمما بين طرفِ اللسان وأُصول الثنايا مخرج التاء، وممّا بين طرف اللسان وفويق الثنايا مخرج السين))(5). وقد علّل (ابن جنّي) الإبدال بين هذين الصوتين، بتقارب مخرجيهما، واتفاقهما في صفة الهمس، وأنهما من أحرف الزيادة(6). وقد سمِّي إبدال السين تاءً تاءً بالوتم، وعزي إلى اليمن (7). وثمة أمثلةٌ كثيرة لهذا الضرب من الإبدال (8). والذي يبدو في هذا الإبدال أنَّه تحوُّلٌ من الرخاوة إلى الشدَّةِ التي تلائم طبيعة القبائل البدوية.

---

(1) سورة البلد: الآية 14.

(2) ينظر: تهذيب اللغة: الأزهري 8/ 41، والقاموس المحيط: الفيروزآبادي 1/ 85.

(3) ينظر: التهذيب 8/ 83، والقاموس المحيط 1/ 41.

(4) ينظر: دلالة الألفاظ: د. إبراهيم أنيس 138.

(5) الكتاب 4/ 433–434، وينظر: سر صناعة الإعراب 1/ 47.

(6) ينظر: سر صناعة الإعراب 1/ 155–156.

(7) ينظر: المزهر 1/ 222.

(8) ينظر: الإبدال: ابن السكيت 104.

2. (مَرَثَ، ومَرَتَ، ومَرَدَ):

فلفظة (مَرَدَ) لها معنيان: ((مَرَدَ على الشَّرِّ و تَمَرَّدَ: أي عَتَا وطَغَى)) (1)، و ((مَرَدَ فلانٌ الخُبْزَ في الماء، ومَرَثَهُ، ومَرَدَ الطعام: إذا ماثَهُ حتى يلين)) (2). إلاَّ أنَّ أصل الكلمة بالمعنى الثاني هو: (مَرَثَ)، إذ ذكر الأزهري (ت 370هـ) في معجمه نقلاً عن الأصمعي (ت216هـ) أنَّ من بابِ المُبَدَّلِ: مَرَثَ فلانٌ الخُبْزَ في الماء ومَرَدَه(3). وقد أُبْدِلَ صوت الثاء تاءً، لتصير الكلمة (مَرَتَ) (4). ثم جُهِرَتِ التاءُ لمجاورتها الرَّاءَ، فصارت الكلمةُ (مَرَدَ)، لتماثل بذلك كلمة (مَرَدَ) بالمعنى الأول(5).

ونجدُ أنَّ أصوات هذه الكلمة قد تطورَّت على صورتين، أولاهما: إبدال الثاء تاءً. والذي سَوَّغَ تعاقب هذين الصوتين هو أنَّ صوت الثاء من الأصوات الأسنانية في العربية و((هي الذال والثاء والظاء، وهي التي تتطلب إخراج طرف اللسان ووضعه بين الأسنان عند النطق بها، ولاشكَّ أنَّ ذلك جهدٌ عضلي تخلصتْ منه لغة الكلام بنقل المخرج إلى ما وراء الأسنان... وأمَّا الثاءُ فقد حَلَّ محلها التاء في مثل كلمة " تُوب " بدلاً من " ثَوْب"...))(6).

والثانية: إبدال التاء دالاً. وهما صوتان من بين طرف اللسان وأصول الثنايا(7)، فهما أسنانيان لثويان (8)، يشتركان في صفة الشدَّة، إلاَّ أنَّ الدَّالَ مجهورٌ

---

(1) التهذيب 14/ 119، وينظر: لسان العرب: ابن منظور 4/ 407، والقاموس المحيط 337/1.

(2) التهذيب 4/ 118، وينظر: اللسان 4/ 407، والقاموس المحيط 1/ 337.

(3) ينظر: التهذيب 15/ 87.

(4) ينظر: الإبدال: أبو الطيِّب اللغوي 159/1، وفصول في فقه العربية: د. رمضان عبدالتواب 291.

(5) ينظر: فصول في فقه العربية 291.

(6) التطور اللغوي 52–53.

(7) ينظر: الكتاب 4/ 433.

(8) ينظر: أثر القراءات القرآنية في الأصوات والنحو العربي: د. عبد الصبور شاهين 226، والمدخل إلى علم اللغة ومناهج البحث اللغوي: د. رمضان عبد التواب 61.

مجهورٌ والتاءَ مهموسٌ (1). والذي سَوَّغَ الإبدال بينهما هو تدانيهما في المخرج، واشتراكهما في صفة الشدَّة. وإبدالُ التاءِ دالاً كثيرٌ في كلام العرب، من ذلك قولهم: مَدَّ في السَّيْرِ ومَتَّ (2). ومنه أيضاً: هَرَتَ الثَّوْبَ وهَرَدَهُ، إذا خرقهُ. كذلك: كَبَتَ العدوَ وكَبَدَهُ، ومثله كثير (3).

3. (الثروة، والفروة):

إذ تروي لنا كتب اللغة أنَّ لفظة (الفَرْوَة) لها معنيان: المعنى الأول: ((فَرْوةُ الرأس: جِلْدتُهُ بشَعْرِها))(4). والمعنى الثاني: الغِنَى(5). وأصل الكلمة بالمعنى بالمعنى الثاني هو (الثَّرْوَةُ)، إذ قال (الأصمعيُّ): ((فلانٌ ذو فَرْوَةٍ، وثرْوَةٍ، إذا كان كثيرَ المالِ. وقال (ابن السكِّيت): إنَّهُ ذو ثَرْوَةٍ في المالِ وفَرْوَةٍ، بمعنىً واحدٍ...))(6).

فلفظةُ (الفروة) بمعنى (الغنى) متطورٌ عن لفظة (الثروة) عن طريق إبدال صوت الثاء فاءً؛ لأنَّ الصوتين متقاربانِ في المخرج، فمخرج الثاء ((مِمَّا بين طرفِ اللسانِ وأطْرافِ الثَنَايا))(7). ومخرجُ الفاءِ ((من باطنِ الشَّفَةِ السُفْلَى، وأطرافِ الثَنايا الثَنايا العُلَى)) (8). فضلاً عن اتحادهما في الصفةِ، فكلاهما صوتٌ رِخْوٌ مهموسٌ(9). فاتحاد الصفةِ بين هذين الصوتين، وتقاربهما في المخرج، جَوَّزَ تعاقبهما، وقد ورد في كتب اللغة أمثلة كثيرة أُبدِلَ فيها صوت الثاء فاءً، من ذلك:

---

(1) ينظر: الكتاب 4/433-434، وسر صناعة الإعراب 1/60-61، والأصوات اللغوية 49-51.

(2) ينظر: المزهر 1/ 464.

(3) ينظر: الإبدال: (ابن السكيت) 103.

(4) التهذيب 15/ 241، والقاموس المحيط 4/ 373.

(5) ينظر: اللسان 20/ 10، والقاموس المحيط 4/ 373.

(6) التهذيب 15/ 241.

(7) الكتاب 4/ 433.

(8) نفسه.

(9) ينظر: الكتاب 4/ 434.

(جَدَثَ، وجَدَفَ)(1)، و(الحُثالة، والحُفالة)، و(الأثافِيّ، والأثاثيّ)، و(ثُمَّ، وفُمَّ)(2). وقد وقد وردتْ في القرآن الكريم إبدال الثاء فاءً، في قوله تعالى: ((وفُوْمِها وعَدَسِها))(3)، إذ قُرِئتْ (ثُومِها) بالثاء(4).

4. (دَحَمَ، وَدَعَمَ):

ومثال ذلك ما روته المعجمات أنَّ دَعَمَ الشيءَ: قَوَّاهُ، ودَعَمَ الشيءَ دَفَعَهُ وَطَعَنَهُ ورَماهُ بشيءٍ (5). إلاَّ أنَّ الكلمةَ بالمعنى الثاني متطورةٌ من (دَحَمَ)، إذ جاء في المعجم، أنَّ ((دَحَمَهُ دَحْماً: إذا دَفَعَهُ...)) (6). بل قد صَرَّحَتِ المعجمات بأنَّ (دَعَمَ) بمعنى الطعن أصلهُ (دَحَمَ) (7). وبذلك تطورت الحاء في كلمة (دَحَمَ) إلى العين، وقد أدَّى هذا التطور إلى تغيُّرٍ في دلالة الكلمة، ونَتَجَ عن هذا التطور كلمة (دَعَمَ) التي اشتركت مع كلمة (دَعَمَ) بمعنى: قوي، إلاَّ أنَّ معنييهما مختلفان، فأدَّى ذلك إلى أن يكون للكلمة الواحدة معنيان.

ويبدو أنَّ الذي سَوَّغَ الإبدال بين هذين الصوتين، أنَّهما صوتان من أوسط الحلق، ولكنَّ العينَ مجهورٌ بين الرِخْوِ والشديد (8)، والحاء مهموسٌ ورِخْو (9). فهما مختلفان في الصفة، متّفقان في المخرج؛ لذا جاز إبدالُ أحدهما من الآخر. وكان

---

(1) ينظر: التهذيب 10/ 634.

(2) ينظر: المزهر 1/ 465.

(3) سورة البقرة: الآية 61.

(4) ينظر: جامع البيان: الطبري 312/1، والكشاف: الزمخشري 285/1– 286، والبحر المحيط: أبو حيّان الأندلسي 233/1.

(5) ينظر: اللسان 15/ 92، والقاموس المحيط 4/ 117.

(6) التهذيب 4/ 434.

(7) ينظر: نفسه 2/ 257.

(8) ينظر: الكتاب 433/4–435، وسر صناعة الإعراب 47/1–61. وثمة خلافٌ في صفة العين عند المحدثين، ينظر: المدخل إلى علم اللغة 81–82.

(9) ينظر: الكتاب 4/ 434، وسر صناعة الإعراب 1/ 60–61.

(الخليل) قد وصف شدَّةَ العلاقةِ بينهما بقوله: ولولا بَحَّةٌ في الحاءِ لأشْبَهَتِ العين؛ بسبب لِقُربِ مخرجها من العين(1).

5. (حَلَكَ، وحَنَكَ):

ومثال ذلك التطور الذي أصاب صوت اللام في كلمة (الحَلَك) فتحوَّل إلى صوت النون (الحَنَك) مِمَّا أدَّى إلى تغيُّرٍ في دلالتها. إذ إنَّ (حَنَك الإنسان) هو الجزء ((الأعلى من الفمِّ)) (2). و(الحَنَكُ) أيضاً: شِدَّةُ السَّوَادِ، يقالُ: أسودٌ حانِكٌ وحالِكٌ، أي شديد السوادِ، وحَنَكُ الغُرابِ شدَّةُ سواده (3). ومِمَّا لاشكَّ فيه أنَّ لفظةَ (الحَنَكِ) بالمعنى الثاني متطوِّرةٌ عن لفظةِ (الحَلَكِ) التي تعني شدَّة السواد، إذ جاء في المعجم ((الحَلَكُ: شدَّةُ السَّوادِ كَلونِ الغُراب، تقول: إنَّهُ لأشدُّ سواداً من حَلَكِ الغُراب، ويقال للأسود الشديد السّواد: حالِكٌ وحُلوك...)) (4). وجاء أيضاً: ((أسْوَدُ حالكٌ وحانِكٌ... وأسْودُ مثلُ حَنَكِ الغُرابِ وحَنَكِ الغُرابِ))(5).

فأُبدِلَ صوتُ اللامِ نوناً؛ لأنَّ الصوتين ذَلَقِيَّانِ مجهورانِ (6)، متوسطان بين الشدَّةِ والرَّخاوة(7). فاللامُ مخرجهُ ((من حافةِ اللسانِ من أدناها إلى منتهى طرفِ اللسان من بينها وبين ما يليها من الحنك الأعلى، ممّا فويق الضاحك والناب والرباعية والثنية)) (8). والنونُ مخرجُهُ ((من حافةِ اللسانِ من أدناها إلى منتهى طرفِ اللسانِ ما بينها وبين ما يليها من الحنك الأعلى وما فُوَيْقَ الثنايا)) (9). فالصوتان متجاوران في المخرج، ومُتَّفِقانِ في صفتي الجهر والتوسُّط؛ وقد سَوَّغ

---

(1) ينظر: العين 1/ 57، وسر صناعة الإعراب 1/ 241.

(2) التهذيب 4/ 104.

(3) ينظر: التهذيب، والقاموس المحيط 3/ 300.

(4) التهذيب 4/ 101.

(5) نفسه.

(6) ينظر: العين 1/ 5، والكتاب 4/ 434، وسر صناعة الإعراب 1/ 60.

(7) ينظر: الكتاب 4/ 435، وسر صناعة الإعراب 1/ 61.

(8) سر صناعة الإعراب 1/ 47.

(9) الكتاب 4/ 433، وسر صناعة الإعراب 1/ 47.

ذلك الإبدال بينهما. فالفارق بينهما أنَّ مجرى الهواء في اللام يخرج من جانبي الفم أو أحدهما، فسمّي بالصوت المنحرف(1)، على حين يكون مجرى الهواء في النون من الأنف(2)، وينمازُ بغنَّةٍ(3)، لا توجد في صوت اللام.

وإبدالُ اللامِ نوناً كثيرٌ في العربية، مثل (أُصَيْلال، وأُصَيْلان) (4)، و (إسماعيل، وإسماعين)، و(إسرائيل، وإسرائين)، و(جبريل، وجبرين)، وغير ذلك(5). ذلك(5).

ومثل هذا التطور الصوتي الذي أدَّى إلى تطور دلالة الكلمة، لفظة (لَمَقَ)، إذ إنَّ لهذه اللفظة معنيين: لَمَقْتُ الكِتَابَ، أي كَتَبْتُهُ. ولَمَقْتُ الكتاب أيضاً، بمعنى مَحَوْتُهُ(6). إذ نجد أنَّ لهذه اللفظة معنيين متضادين، وقد صرَّحَتْ بذلك كتبُ اللغةِ، إذ جاء فيها أنَّ ((لَمَقْتُ من الأضداد، بنو عقيل يقولون: لَمَقْتُ: كَتَبْتُ. وسائر قيس يقولون لَمَقْتُ: مَحَوْتُ...)) (7). ويبدو أنَّ بني عقيل قد طوَّروا لفظة (لَمَقَ) بمعنى الكتابة، في أثناء عملية نطقهم، إذ إنَّ أصلها (نَمَقَ). ففي المعجم ((نَمَّقْتُ الكتابَ تنميقاً، إذا حسَّنتهُ وجَوَّدْتهُ...)) (8). فأُبدل النونُ لاماً، والنون واللام من الأصوات التي يحدث فيها الإبدال كثيراً مثلما أشرنا إلى ذلك سابقاً.

6. (قُمَاش، وكُماش):

ومثال ذلك لفظة (القُماش) التي تعني ((ما كان على وَجْهِ الأرضِ من فُتاتِ الأشياء حتى يقال لِرُذالةِ الناس قُماش)) (9). إلاَّ أنَّ دلالتها الآنَ تَحِلُّ في

---

(1) الكتاب 4/ 435، وسر صناعة الإعراب 1/ 63، وعلم اللغة العام (الأصوات) 129.

(2) ينظر: علم اللغة العام (الأصوات) 131.

(3) ينظر: الكتاب 4/ 435، وسر صناعة الإعراب 1/ 61.

(4) ينظر: الكتاب 4/ 240.

(5) ينظر: الإبدال (ابن السكيت) 61–69، والإبدال (أبو الطيّب اللغوي) 2/ 402.

(6) ينظر: التهذيب 9/ 179.

(7) نفسه، وينظر: الأضداد (ابن الأنباري) 35، والأضداد (أبو الطيب اللغوي) 2/ 614.

(8) ينظر: التهذيب 9/ 203.

(9) التهذيب 6/ 337.

نفوسنا مَحَلَّ الاحترام، لاسيما حين ننسبها إلى الحرير ونقول: الأقمشةُ الحريريةُ[1]. الحريريةُ[1]. والذي يبدو أنَّ الدلالةَ الثانية لهذه اللفظة متطورةٌ من لفظةٍ أخرى، فهي ((مأخوذةٌ من كلمةٍ فارسيةٍ هي "كُماش" بمعنى نسيجٍ من قطنٍ خشنٍ)) [2]. إذ إذ إنَّ اللفظةَ العربية أُبْدِلَ قافُها كافاً فأشبهتْ اللفظة الفارسية، وانصرفتْ دلالتها إلى الدلالة الفارسية، بمعنى النسيج[3].

وأغلبُ الظنِّ أنَّ الذي سوَّغَ الإبدال بينهما هو تجاور الصوتين في المخرج، واشتراكهما في صفة الشدَّةِ، وفي صفةِ الهمس – على رأيِّ المحدثين – فالقافُ صوتٌ لهويٌّ يخرج من أقصى اللسان وما فوقه من الحنك الأعلى، أمَّا الكاف فمن أسفلَ من موضعِ القاف من اللسان قليلاً، وما يليه من الحنك الأعلى، وهما صوتان شديدان[4]. ولا خلاف في أنَّ الكاف صوتٌ مهموسٌ [5]، ولكنَّ القافَ القافَ مجهورٌ عند القدماء[6]، مهموسٌ عند المحدثين[7].

7. (تَلَحْلَحَ، وتَحَلْحَلَ):

ومن الألفاظ التي اعتورها تطورٌ صوتيٌّ، وأدَّى هذا التطورُ إلى تطورٍ في دلالتها لفظة (تَلَحْلَحَ)، بمعنى: أقامَ وثَبَتَ، إذ جاء في المعجم ((تَلَحْلَحَ القومُ بالمكان إذا ثبتوا به)) [8]. وقد أوردتْ كُتُبُ الأضدادِ أنَّ هذه اللفظةَ تأتي بمعنى: زالَ وذَهَبَ، وهي من ألفاظ الأضداد[9].

---

(1) ينظر: دلالة الألفاظ 138.

(2) نفسه 139.

(3) ينظر: دلالة الألفاظ.

(4) ينظر: العين 58/1، والكتاب 433/4-434، وسر صناعة الإعراب 47/1-61.

(5) ينظر: الكتاب 4/ 434، والأصوات اللغوية 21.

(6) ينظر: نفسه، وسر صناعة الإعراب 1/ 60.

(7) ينظر: التطور النحوي 16-17، والأصوات اللغوية 21-84، والمدخل إلى علم اللغة 61.

(8) التهذيب 3/ 444.

(9) ينظر: الأضداد (ابن الأنباري) 236.

ويبدو أنَّ هذا المعنى هو للفظةٍ أخرى، وهي (تَحَلْحَلَ) بمعنى: تَفَرَّقَ، إذ ((يقال تَحَلْحَلوا: أي تَفَرَّقوا)) (1). إلاَّ أنَّ الكلمةَ قد أصابها تطورٌ عن طريق تقديمِ بعضِ أصواتِ الكلمةِ على بعضٍ؛ بسببِ صعوبةِ تتابعها الأصلي على الذوق العام؛ وذلك من أجلِ السهولةِ والتيسيرِ، وهو ما يسمَّى بظاهرة القلب المكاني (2). فأدَّى هذا التطور إلى تطابقِ هذه الكلمةِ مع نظيرتها (تَلَحْلَحَ)، وهو ما أدَّى أيضاً إلى أنْ يكون للفظةِ (تَلَحْلَحَ) معنيانِ متضادان.

وهذه الألفاظ التي تَعْتَوِرُها ظاهرةُ القلبُ المكاني كثيرةٌ في العربية، من ذلك (جَذَبَ، وجَبَذَ)، و(اضْمَحَلَّ، وامْضَحَلَّ)، و(لَزَجَ، ولَجَزَ)(3). إلاَّ أنَّ مثل هذه الألفاظ الألفاظ لمْ يُؤَدِّ هذا التطورُ فيها إلى تطورٍ في دلالتها.

ومن الألفاظ التي تطوَّرتْ دلالتها بسبب هذه الظاهرة أيضاً، لفظةُ (عَمِيق)، إذ تطوَّرتْ إلى (مَعيق)، فالأول معناه واضحٌ في العربية، ومنه قوله تعالى: ((يأتُوكَ رِجَالاً وَعَلى كُلِّ ضَامِرٍ يأتِيْنَ مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيْقٍ)) (4). أمَّا الثاني: فقد جاء في المعجم: ((... وأمَّا المَعِيْقِ فالشديد الدُّخول في جَوْفِ الأرض...))(5)، الأرض...))(5)، وجاء أيضاً أنَّ ((العَمِيْقَ أكثرُ من المَعِيْقِ في الطريق))(6).

والحقيقة أنَّ لفظةَ (مَعِيْق)، أصلها (عَمِيْق)، وقد تطوَّرتْ عنها عن طريق تقديمِ بعضِ حروفِ الكلمةِ على بعضٍ، وهو ما يسمَّى بظاهرةَ القلب المكاني. وقد أدرك الفرَّاءُ (ت207هـ) أنَّ أصلهما واحدٌ، إذ قال: ((لغةُ أهل الحجازِ عميق، وبنو تميمٍ يقولون: معيق))(7).

---

(1) التهذيب 3/ 445.

(2) ينظر: التطور اللغوي 57.

(3) ينظر: المزهر 1/ 476–481.

(4) سورة الحج: الآية 27.

(5) التهذيب 1/290–291.

(6) نفسه 1/ 290.

(7) نفسه.

إذ نلحظُ أنَّ هذا التطور أدَّى إلى تطورٍ في دلالةِ الكلمةِ، فنشأتْ صورةٌ جديدةٌ للفظةِ بمعنىً جديد. وهذا يثبتُ دور التطور الصوتي في تطور الدلالة.

الخاتمـــة:

إنَّ أهم النتائج التي توصل إليها هذا البحث يمكن إجمالها في النقط الآتية:

1. إنَّ أصواتَ اللغةِ في تطورٍ مستمرٍ، وهذا التطورُ يكون نتيجةَ عوامل كثيرة، منها ما يتعلق باحتكاك الأصوات بعضها مع بعض في أثناء عملية التصويت، وهو ما يسمَّى بالتطورات التركيبية. ومنها ما يتعلّق بتطور أصواتِ اللغةِ بمرور الزمن؛ بسبب عوامل بيئيةٍ أو اجتماعيةٍ أو نفسيةٍ أو عضويةٍ... الخ، وهو ما يسمى بالتطورات التأريخية.
2. إنَّ التطور الصوتي الذي يَعْتَوِرُ الألفاظ ينتجُ عنه ظواهر لغوية متنوعة، قد تكون هذه الظواهر صوتيةً مثل (الإبدال، والمخالفة الصوتية، والإدغام، وغيرها). أو تكون ظواهر دلالية مثل (المشترك اللفظي، والأضداد).
3. إنَّ التطورَ الصوتيّ قد ينتجُ عنه تطورٌ في الدلالة، وذلك كأن تتطور أصواتُ كلمةٍ ما فتتشابه مع كلمةٍ أخرى، مِمّا ينتج عنه صورتانِ لكلمةٍ واحدةٍ، لكنَّ معناهما مختلفٌ. وهذا يؤكد أثر التطور الصوتي في تطور الدلالة.

Phonological Changes and their Effect on Semantic Changes

Dr. Farhad A. Muhydeen[*]

Abstract

Phonological changes are one of the causes of semantic changes. Words are usually linked with specific meaning in our minds. Any Changes in their pronunciations will definitely result in partial or complete changes in their meanings.

The current paper tackles phonological changes in two sections. Section one deals with phonological changes in general, their definition, and their causes.

Section two sheds light on the consequences of such semantic changes. The paper cites a number of words which witnessed phonological changes, which in turn led to semantic changes, as phonological changes usually lead to changes in the forms of words without changing the meaning of the words. Hence the current paper tackles those cases in which phonological changes led to semantic changes.

---

[*] Department of Arabic/ College of Education/ University of Kirkuk.